الشعر في صدر الإسلام وعصر بني أمية

مقدمة تاريخية

لقد غير الإسلام كثيرا من نواحي الحياة في عرب الجاهلية، ونقلهم من طور حضاري إلى آخر مختلف عنه وعلى كافة الأطر والمستويات، فإذا جئنا للمستوى الاجتماعي مثلا رأينا الإسلام قد أبطل عادات كثيرة وسن مكانها قوانين وشرائع جديدة أكثر عدلا وانسجاما، فمن ذلك إبطاله كل أنواع الزواج المتعددة في الجاهلية وإبقائه على نوع واحد فقط منها هو الزواج الشرعي بشروطه المعروفة من مهر وشهود وولي، كما حدّد التعدد للرجل بأربع نساء كأقصى حدّ واشترط فيه القدرة والعدل، وقد كان التعدد في الجاهلية غير محدّد، كما منح للمرأة بعض الحقوق التي كانت مسلوبة منها، كحق الميراث، وحق الزواج بعد الترمل، كما حارب عادة وأد البنات التي كان يمارسها أحيانا فقراء العرب وضعافهم خشية الفقر أو الفضيحة، أما العبودية فإنّ الإسلام وإن لم يحرّم هذه العادة القديمة المتأصلة إلا أنه شجع على حسن معاملة العبيد، وأن لا فضل لعربي على عجمي، ولا أبيض على أسود، ولا حر على عبد إلا بالتقوى.

ومن الناحية الاقتصادية نجد الإسلام يحرم بعض المعاملات التي كانت شائعة، كالربا والاحتكار والتطفيف والغش، وشجع على التجارة والعمل، وحث على الصدق والنزاهة. كما حارب بكل شدة قطع الطرق واعتراض القوافل والمسافرين، واعتبرهم أعداء الله والمسلمين، ووّجه طاقة المحاربين للفتوحات بدلا من الصراع الداخلي. كما سن نظام الزكاة، واعتبر أنّ للفقراء حقا معلوما في مال الأغنياء.

ومن الناحية السياسية وّحد القبائل العربية المتصارعة تحت راية واحدة، وقيادة سياسية ودينية واحدة، واعتبر طاعة ولي الأمر من طاعة الله ورسوله، وهذا الولي يسمى خليفة الرسول، ويتم تعيينه بالشورى ويشترط فيه التقوى والصلاح والعلم والصحة. وأصبحت المدينة المنورة عاصمة تتجمع فيها قوات المسلمين وتخرج منها للجهاد، وقد تم في وقت قصير لا يتجاوز عشرين سنة من وفاة النبي فتح جميع البلاد المحيطة بالجزيرة كالعراق والشام وفلسطين ومصر بعد ان كانت فارسية أو رومية.

أما من الناحية الثقافية فقد أثر الإسلام كثيرا وبصور مختلفة في مظاهر هذه الثقافة، وأبرز صورها الشعر، لا سيما من خلال القرآن الكريم.

وتأثير القرآن على اللغة العربية واسع جدا ، يصعب حصره ، لكننا سنجمله في نقاط :

1 ـ توحيده للهجات واللغات العربية الكثيرة التي كانت تتكلم بها القبائل، في لغة واحدة هي لغة قريش التي تحولت إلى فصحى، لغة رسمية لكل العرب، بل لكل المسلمين.

2 ـ تطوير دلالة كثير من الألفاظ القديمة، وصبغها بمعان إسلامية جديدة، كالمؤمن والكافر ، الملاك والشيطان ، الصلاة والصوم والزكاة ، النار والجنة ..

3 ـ تهذيب كثير من الألفاظ والأساليب وطرائق التعبير، ومحاولة كثير من الشعراء والخطباء محاكاته وتقليد أساليبه ومجازاته وتشبيهاته وأمثاله.

4 ـ أسهم شغف المسلمين بالقرآن وتدبره في ظهور علوم كثيرة متعلقة به كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني والقراءات والتفسير والتأويل والأصول والفقه والعقائد .. وتطوير علوم اللغة وما يتعلق بها من نحو وبلاغة وصرف ومعجم وأصوات وغيره.

5 ـ شجع تدوين القرآن على تعلم الكتابة والقراءة، مما كان له الفضل الأوسع في انتقال العرب من الثقافة الشفاهية إلى الثقافة الكتابية.

أ ـ الشعر في صدر الإسلام :

لقد عاش كثير من الشعراء مرحلة الانتقال من عصر إلى عصر، ومن طور حضاري إلى آخر، فسموا بالمخضرمين، ونجد في شعرهم كثيرا من القيم الفكرية والفنية الجاهلية جنبا إلى جنب مع القيم الإسلامية، ومن أبرز الأسماء نجد حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، والحطيئة، والخنساء.

وفي الواقع نجد أنّ موقف الإسلام من الشعر موقف مزدوج، فمن جهة نجده يذم الشعر والشعراء، في قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" .

وهناك جدل حولها لم ينته لا قديما ولا حديثا، فهذا ابن رشيق في العمدة يذكر: "فأما احتجاج من لا يفهم الكلام بقوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ..) فهو غلط وسوء تأول، لأن المقصود بهذا شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء، ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك"، ويقول في موضع آخر : "وأما قوله عليه الصلاة والسلام (لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا، فإنما هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه، حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه .. وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدبا وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين، والجلّة من الصحابة والتابعين".

فالإسلام لم يحارب الشعر كشعر، ولم يحرّمه، ولم يحرّم سماعه أو التغني به، وقد كان الرسول نفسه وصحابته يستمعون ويستمتعون به.

وإنّما أراد الإسلام من الشعر أن يكون سلاحا بطابع أخلاقي وإرشادي، منتصرا لمكارم الأخلاق، وليس لإثارة الأحقاد والتنابز والمفاخرات وهتك الحرمات والأعراض .. لذلك نجد الشعر في هذه الفترة قد بدأت تطرأ عليه بعض التحولات بشكل تدريجي ، فهجر الشعراء المسلمون بعض الأغراض كالغزل الفاحش، ووصف الخمر ومجالسها، والهجاء القبيح المهين، والمدح المتملق المبالغ فيه .. كما ظهر غرض جديد هو الشعر الديني الذي كان يمجد الإسلام ويدافع عن مبادئه ويدخل في مساجلات شعرية مع الشعراء من كفار مكة . كما أمعن شعراء الإسلام في وصف انتصارته العسكرية وفتوحاته، ومعارك العرب ضد جيوش الفرس والروم، وشجاعة المسلمين وبطولاتهم.

وما تجدر ملاحظته أن المستوى الفني هو أهم نقيصة يشكو منها الشعر في هذه الفترة، فالشعر الجاهلي كان أقوى فنيا وأفحل من شعر المخضرمين. وقد أرجع الأصمعي ذلك إلى الطبيعة الجديدة التي اكتسبها العرب، "فالشعر بابه الشر، فإذا دخل في باب الخير لان وضعف"، أو كما قال حسان بن ثابت مدافعا عن نفسه: "إنّ الإسلام يحجز عن الكذب، والشعر يزينه الكذب".

وعليه يمكن القول إنّ شعر صدر الإسلام هو ـ بصفة عامة ـ استمرار للشعر الجاهلي إلى حد كبير، فالأغراض بقيت نفسها، وكذلك أساليب التعبير، والمضامين والموضوعات.

وكنموذج من هذا الشعر ما قاله حسان بن ثابت شاعر الرسول في وصف صحابة النبي من المهاجرين :

قوم إذا حاربوا ضـروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقـهم تبع
أعفة ذكرت في الـوحي عفتهم لا يطمعون ولا يـزري بهم طمع
لا يـفخـرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
أكـرم بقوم رسول الله قائدهم إذا تـفرقـت الأهـواء والشيع

ومن مطالعة متأنية للشعر الإسلامي حتى الأكثر صدورا ممن ينافحون عن الدين الجديد، يمكن ملاحظة عدم الالتزام بأخلاقية الإسلام وتعاليمه، فهذا حسان بن ثابت يبدأ همزيته المشهورة في مدح الرسول بمقدمة غزلية / خمرية جاء فيها بعد الحديث عن الطلل:

فدع هذا ولكن من لطيف يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشعثاء التي قد تيمته فليس لقلبه منها شفاء
كأن سبيئة من بيت راس يكون مزاجها عسل وماء
إذا ما الأشربات ذكرن لي فهن لطيب الراح الفداء

ومن القصائد المشعهورة في هذه الفترة تلك القصيدة التي مدح بها كعب بن زهير بن أبي سلمى الرسول وكان قد أهدر دمه من قبل، بسبب هجائه له هجاء قاسيا مرا، فجاء إلى المدينة خفية حين اشتد عليه الطلب وأدرك أنه مقتول لا محالة، واستجار بأبي بكر فقدّمه إلى النبي فأسلم على يديه، ثم قال قصيدته اللامية:

بانـت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثـرها لم يُفدَ مكبـول

فأعجب بها النبي وخلع عليه بردته علامة على الرضا والتكريم، وقد توارثها أبناء الشاعر من بعده، وصار يلبسها لاحقا خلفاء بني أمية ومن جاء بعدهم.

ومن أبرز شعراء هذه الفترة وأقواهم من الناحية الفنية، وأقربهم إلى النموذج الجاهلي القديم الحطيئة، واسمه جرول، ويكنى أبا مليكة، واشتهر بالهجاء المقذع،

واللسان الحاد الذي لم ينج منه أحد، حتى لقد هجا نفسه حين لم يجد من يهجوه، وكان اسلامه ضعيفا، وظل يتقاضى مالا من بيت مال المسلمين باعتباره من المؤلفة قلوبهم، واستمر ذلك حتى عهد عمر بن الخطاب الذي أوقف ذلك. وقد قال فيه الأصمعي: "كان الحطيئة جشعا سؤولا ملحفا دنيء النفس كثير الشر قليل الخير بخيلا قبيح المنظر رث الهيئة مغمور النسب فاسد الدين، وما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب إلا وجدته، وقلّما تجد ذلك في شعره".

وقد سجنه عمر مدّة لمّا بلغته شكاوى الناس من شعره، فأرسل إليه قصيدة من سجنه يعده بالتوبة، ومما قاله مستعطفا الخليفة:

ماذا تـقول لأفـراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجرٌ
ألقيتَ كاسـبهم في قـعر مظلمة فاغفـر سلام الله عليك يا عمرٌ
أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البَشَرٌ
لم يـؤثروك بها إذ قـدموك لها لكن لأنـفسهم كانت بك الخِيرٌ

فأطلق سراحه، لكنه لم يلبث أن عاد إلى سيرته الأولى.